

فصل من رواية «المد» لمنهل السراج

بتاريخ ٢٠٠١/٢/١٧ منعت إدارة المخطوطات والنشر في اتحاد الكتاب العرب طباعة هذه المخطوطة.

عندما رأى فارس فطمة للمرة الأولى عند ضفة النهر كانت تَبكي بعويل مُرعب، وهي تُغسل ساقَيْها: «أهذا دمي، أم دم أعمامي، أم أبناء أعمامي؟» إختطفها وهو ينهاها عن الصراخ، فيما مضت تهلوس: «احترق بيت ليا وتشرد أهلي، كلُّ في اتجاه. وجدتُ نفسي وحيدةً عند النهر. البيت الكبير فارغ. غرسوا حراهم في تراب الحديقة. كأنني رأيتهم يطعنون النخلة. أصاب جدتي الخرسُ والعمى قبل أن تخنفي. أم الحب احتضنت الأطفال وهربت بهم. أمي ركضت خلف أبي عندما أخذوه كي يسألوه عن لفاة نذير. أختي ليلي... أتكون مع أم الحب؟ لقد غسّلوا أحييتهم الثقيلة بماء البحرة التي امتلأت من المطر. أخي أحمد، الصغير السن، أخذوه مبلل الثياب ببوله.»

أخذ فارس يهدئها: «كُفّي عن الصراخ. يجب أن تنجي بنفسك وتُنجيه...»

انصاعت للركض معه عبر البساتين الخلفية، كانت تستطيع أن ترى في طريقها اللاهث بقايا أعضاء بشرية مبعثرة: معدة ملتصقة على جدار، قلباً مرمياً هناك، ذراعاً لا تُعرف صاحبها، بنطالَ بيجامة فيه ساقان. «ربما تكون بقايا جثة أحد أولاد عمي.»

وسط البيوت التي تنهدم حولهما، وصلا صخرتين أبتا إلا أن تصمدا. قالت وهي تتقيأ وتلثت: «أرجوك، أريد أن أسند ظهري بين هاتين الصخرتين.»

- لا وقت. سوف يصيبنا القصف.

لكنها تركته، ودخلت بينهما. لم تستطع عيناها رؤية الظل بعد امتلائهما بالغبار الكثيف. تهاوت على الأرض، مغمياً عليها ثانية. وحين استيقظت رأت أمامها كومة هائلة من الجثث. صرخت مرة أخرى. شدّها فارس ونهاها أن تكف. لكنّ أُنبيأ انطلق من تلة الجثث جعلها تصيح:

- يوجد أحياء يجب إنقاذهم.

أجابها كاذباً:

- إنه صوت القطط.

سحبها وهو يُطر عرقاً، دموعاً، رعباً.

خرجوا من حارات المدينة. أخذوا كل أنواع وسائل المواصلات كي يصلوا إلى أقرب ضيعة. وعندما أمسك فارس بيدها وهي تهبّط من الطرطيرة^(١) قال: «يدك ساخنة جداً، رغم البرد الشديد.»

أجابته: «من أنت؟ وما اسمك؟»

١ - شاحنة صغيرة بثلاث عجلات فقط.

وجدوا في الضيعة بعض أهل المدينة ممن استطاع أن يهرب مثلهم. قضيا بضعة ليالٍ في ازدحام الضيعة يأكلان اللقائمات التي تهيأت لهما من المساعدات كي يدفعا البرد والجوع والتعب.

صبراً؛ فلما بعد ساعات ستصبح ليا المجنونة، عند الفجر تماماً.

باق في تنكة المازوت ليطر أو أقل، موضوعة خلف باب بيتها، عند ركن الخطر مع منقل الفحم ووابور الكاز، وكل ما تتوقع أن يؤذي طفلتها الشقية «سحورة».

كانت ليا نائمةً بعيون نصف مغلقة، ثديها مع طفلها. دفن زوجها رأسه وتهديته بين كتفيها خلف ظهرها. طفلتها ابنة الثلاث سنوات نائمة نومًا عجيبًا غريبًا عند قدميها.

نامت، من تعبها، ليا اليقظة دائماً. كذلك فعل زوجها المريض. لكن الطرُق الشديد جعله يففز من فرشته، ومن خوفه، ليفتح الباب. ركلوا قامته النحيلة. داسوا أرض الدار الإسمنتية السوداء. خطوتان. وجدتهم بشعارهم المعروف. سحبت ملاءتها وشدتها عليها، وعلى ابنها المنتشبت بثديها. غضبت من الرضيع، فرمته فوق ظهرها، لكنه ظل متمسكاً بكتفيها اللتين تحولتا شرفاً لمراقبة الغرباء. نخرزا بالحرايب المعلقة. دفعا بأحذيتهم القاسية خف الطفلة البلاستيكي الأحمر والمقصوفة مقدمته. رفعوا الوسادة التي تحمّل رأس الطفلة وقتشوا تحتها. لم يجدوا شيئاً. تركوها. هوى رأس سحورة، لكنها لم تستيقظ. كانت عينا أنس ترتقب كل شيء من شرفته التي هي كتفا أمه المتنقلة: تصعد وتهبط وتلمم وتسوي ما يخربه المقتحمون في بيتها الصغير. في غفلة منها، وبسرعة كالحقد، أمسك أحدهم تنكة المازوت المتبقي من خلف باب بيتها وسكبها على كل شيء. أما ليا المأخوذة فقد سحبت وسادة زوجها، بدل سحورة التي لم تستيقظ، رغم كل الصخب، من غفوتها المطمئنة عند قدمي أمها، ولن تسمح لأي سبب بسحب السكينة منها. لكنها فحمت. أما ليا التي فوجئت في ركضها بحملها الوسادة على صدرها بدل الطفلة أو الطفل الصامت أنس في يد والوسادة في اليد الأخرى، فقد وقفت على الجسر، وقررت أن ترمي الوسادة التي خدعتها. لكنها بدل أن تفعل ذلك، رمت الطفل في النهر تحت القناطر.

هكذا وجدت ليا نفسها من دون أعباء، من دون طفلها، من دون زوجها، ومن دون عقل.

«ليا، يا ليا، أتذكرين زوجك الفقير حارس إصطبلات الخيول لأغنياء الضفة الثانية، حين كان يوجد خيول، وطفلك سحورة بنت الثلاث سنوات وأنس ابن الثلاثة أشهر؟ أتذكرين أرض دارك الإسمنتية اللامعة المغسولة في عسرونية الصيف، ويرميل الغسيل الذي كنت تغلين فيه خرقة طفلك؟»

ليا كانت كالنحلة، تقطع الجسر في اليوم الواحد عشرات المرات، تدفع أي باب من غير تكلف، تضع خفها تحت أول شجرة، وملاءتها فوق أول غصن. تغسل يديها ووجهها ورقبتها. ترتب ما حولها وتلمم بيديها كل ما تجده في طريقها. تسقي الأحواض على عجل. تشوي الباذنجانة، تقطف الملوخية، وتقلي البطاطا لعشاء الأطفال المدللين. تهرع إليها دجاجات البيت، وإن لم تنتبه ليا إليها. تثرثر مع الجميع، ولا تكف، وإن لم تجد أحداً تثرثر معه، فسوف تغني. قد تجد أمامها صندوق فاكهة؛ تتناول واحدةً تمسحها بثوبها، وتأكلها على تعيها مواصلةً تثرثرها. وعندما تصادف شيئاً مجهولاً، مسجلةً حديثاً أو آلة كهربائية ما، فإنها تضحك ساخرةً من جهلها، معتذرةً من كل من حولها. لا تسأل أحداً ما يحتاج؟ فهي تعرف ما يحتاجه الجميع، ولا أحد يعرف ما يحتاجه هي، اللهم إلا حاجتها لتأمين حاجاتهم.

احترق البيت، ثم انهار مع بيوت الضفة الثانية، وغاب زوجها مع من غابوا، ورمت الوسادة المتبقية في حضنها. رأت حارس الطاحونة يتحول إلى قط ليلي، ورأت حارتها والضفة الثانية كلها ركماً...

حماء